

## من تاريخ الاستشراق مرحله ما بعد الحروب الصليبيه

الدكتور محمد الدسوقي

الدارس لتاريخ الاستشراق يلاحظ أنه بدأ أولى خطواته في رعايه الكنيسه، وأن الجيل الأول من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة، وما زال بعضهم حتى الآن من رجال اللاهوت، وأن روح التعصب والأفكار الكنيسه والنظره إلى الإسلام نظره غير موضوعيه قادت الفكر الاستشراقي عبر تاريخه الطويل حتى العصر الحاضر.

على أن الاستشراق مع هذا مر بعده مراحل أو فترات تاريخيه ويمكن تقسيمها على النحو التالي:

### 1. المرحله الأولى:

وتبدأ بعد فتح الأندلس، وازدهار الحياه العلميه فيها، وكذلك جزر البحر المتوسط وجنوب إيطاليا، وتنتهي هذه المرحله بانتهاء الحروب الصليبيه.

### 2. المرحله الثانيه:

وتبدأ بعد الحروب الصليبيه، وتمتد إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً.

### 3. المرحله الثالثه:

وقد بدأت في منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب؛ واستمرت إلى نهايه الحرب العالميه الثانيه.

### 4. المرحله الرابعه:

وبدأت بعد الحرب العالميه الثانيه، وما زالت مستمره حتى الآن.

وقد روعي في هذا التقسيم تميز كل مرحله بخصائص معينه، وإن كان هناك قاسم مشترك بين كل هذه المراحل، وخاصه تلك التي بدأت بعد الحروب الصليبيه.

وفي الصفحات التاليه حديث موجز عن المرحله الاولى، حديث يهتم بالكليات دون الجزئيات، أو الحقائق العامه دون التفصيلات الفرعيه. أو ثم التركيز على المرحله الثانيه (مرحله ما بعد الحروب الصليبيه)، ونترك الحديث عن باقي المراحل لبحوث قادمه.

## بدايات الفكر الاستشراقي

من المعروف تاريخياً أن الغرب كانت له محاولات قبل الإسلام لمعرفة الشرق والشرقيين<sup>1</sup>، بيد أن هذه المحاولات ما كانت تسعى إلى ما يسعى إليه الغرب بعد ظهور الإسلام، ودخوله أوربا في مستهل القرن الهجري الثاني.

إن اوربا بعد فتح الأندلس وجزر البحر المتوسط، وآلت وجهها نحو الشرق لأن نوراً جديداً انبثق فيه، واكتسح ظلمات الفرس والروم، هذا النور الذي بدد دياجير الوثنيه في الجزيره، ووجد بين القبائل العربيه المتصارعه، وأنشأ منها قوه عادله ضاربه مزقت أكبر القوى في ذلك العصر، ومكنت لدين الله في الأرض، فانتشر الإسلام في فتره

زمنيه وجيزه بين شعوب وأقطار متباينه اللغات والعقائد والعوائد، مما أثار دهشه أهل أوروبا، وحملهم على أن يقفوا على سر تلك الظاهره الفريده في تاريخ البشريه، وأن يلموا بثقافه وعلوم هؤلاء المسلمين الذين أصبحوا مثلاً أعلى للتقدم والحضاره، وأصبحت حواضرهم مثاباتٍ للبحث والدرس ومراكزٍ للثقافه والفكر.

إن أوروبا التي كانت حين حمل العرب الإسلام إليها تغطُّ في سُبات الجهل والتخلف، والمعتقدات الفاسده، والصراع الطبقي، والتناحر حول الزعامه والسلطه، سعت لأخذ علوم المسلمين وثقافتهم، وكذلك لمعرفة مناط قوتهم، وعوامل مجدهم، وأسباب وصولهم إلى مراكز القياده في العالم الذي كان معروفاً حين ذاك<sup>2</sup>. وكان من مظاهر ذلك، هجره شباب أوروبا لطلب العلم في مراكز الثقافه الإسلاميه وخاصه في الأندلس، وإرسال البعثات التعليميه الرسميه إلى هذه المراكز، وإقامه صلات الموده بين بعض الحكام، كما حدث بين الرشيد وشارلمان، وكذلك إنشاء المدارس في أوروبا على غرار ما كان في البلاد العربيه، واستقدام الأساتذه والعلماء المسلمين للتدريس فيها مع الأساتذه الأوربيين الذين أتموا دراستهم في الديار الإسلاميه، ثم نقل التراث العلمي الإسلامي إلى اللغه اللاتينيه التي كانت لغه العلم في أوروبا في ذلك الوقت، وبدأت حركه الترجمة في القرن التاسع الميلادي، ونمت بعد ذلك، ولا سيما بعد سقوط طليطله عام 478 هـ، 1805 م، فقد أنشأ رئيس أساقفتها ديواناً للترجمة كان يضم بعض العرب الذين تعلموا اللاتينيه وقام هذا الديوان بنقل التراث العربي برمته من فلسفه وأدب وفلك وطب .. إلخ .. إلى هذه اللغه ..

وتعد صقليه من أهم مراكز الترجمة التي أثرت في أوروبا تأثيراً بالغاً وخاصه في مجال العلوم الطبيه.

لقد حكم العرب هذه الجزيره أكثر من قرنين ونصف من الزمان (212-484 هـ) ونشروا في ربوعها حضاره مزدهره كانت لها انعكاساتها الإيجابيه على نهضه أوروبا، وتطور الحياه العلميه فيها.

لقد كانت أوروبا تتلمذ على أيدي العرب، كانت تتعلم لغتهم، وتترجم علمهم، وتتشىء المدارس على غرار مدارسهم، وتضع لها المناهج الدرسيه المنقوله عن المناهج العربيه، ومن ثم لم يكن للعلماء الأوربيين في تلك الحقبه إنتاج علمي خاص، لاعتماداً كلياً على التراث العربي، وكل ما ظهر من مؤلفات لاتينيه لاتعدو أن تكون ترجمات لمؤلفات إسلاميه أو نقلاً عنها<sup>3</sup>.

ويصف بعض الأوربيين اقبال غير المسلمين، وخاصه الشباب على تعلم العربيه، ودراسه الكتب الإسلاميه فيقول: «النصارى كانوا يحبون قراءه القصائد والقصص العربيه ودراسات الفقهاء والفلاسفه العرب لا لدحضها، بل لامتلاك ناصيه لغه عربيه سليمه جميله، فأين – سوى رجال الدين – من يقرأ الآن التعاليق اللاتينيه على الكتاب المقدس، أو يدرس الإنجيل والرسل والحواريين؟ وا أسفاه!! إن الشباب النصراني يدرس ويقرأ بحماس الكتب العربيه، إنه يجمع مكتبات كثيره بأثمان باهظه، ويحترق الأدب النصراني، ولا يعيره اهتماماً، لقد نسي الشباب لغتهم، وفي مقابل شخص واحد يستطيع كتابه رساله إلى صديقه باللاتينيه، هناك ألف شخص ممن يستطيعون التعبير في رساله بالعربيه، وينظمون في هذه اللغه قصائد أجمل مما يفعل العرب أنفسهم»<sup>4</sup>، ولكن أوروبا، مع أخذها عن المسلمين، وعلى الرغم من شده حاجتها إلى ما أخذت، كانت تشعر بشعور المعاداه والبغضاء تجاه من يأخذون عنهم، وكان ذلك بسبب الانتصارات الحربيه التي حققها المسلمون منذ معركة مؤته (8 هـ) إلى معركة بلاط الشهداء (114 هـ).

إن الإسلام الذي انتشر في فتره زمنيه وجيزه في بقعه فسيحه من العالم كان المشكله البعيده المدى بالنسبه لأوروبا، ولهذا قاومه مقاومه عنيفه، في شتى المجالات، وكان رفضها إيّاه يكاد يكون شاملاً من كل الجوانب<sup>5</sup>.

وكان النصر العسكري الذي أحرزه المسلمون تتراءى صورته في مخيله الأوربيين، ولا سيما الحكام والقاده، فترجع خواطرهم، وتبعث في نفوسهم روح التوجس والخوف من أن تقايمهم الجيوش الإسلاميه، وتغزوهم في عقر دارهم. وقد اذكى هذا الشعور بالمعاداه والقلق موقف الكنيسه من حركه الفتوحات الإسلاميه، وهيمنه الفكر الإسلامي على شباب أوروبا. فقد كانت، بلا جدال، ترى في هذه الفتوحات تقليصاً لنفوذها، وفي إقبال الأوربيين على دراسه العلوم العربيه تفويضاً لسلطانها، لقد كانت تقود الحياه في مختلف مجالاتها من منظور الفكر الكنسي، وهو فكر يناهض النظر العقلي، لأن هذا النظر يكشف عن تناقض ذلك الفكر، وأنه يسلم بقضايا يرفضها العقل. فإقبال الأوربيين في حماس بالغ على دراسه العلوم العربيه والثقافه الإسلاميه بما تمثله من حريه دينيه وفكريه، وبما تؤكد من أن

الناس جميعاً أمام خالقهم سواء، وأن أحداً – ولو كان نبياً مرسلأ – لا يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً، وأن الله فرد صمد لم يلد ولم يولد، وإن المسيح (ع) بشر كسائر البشر، يؤدي – لا محاله – إلى انهيار ما تتمتع به الكنيسة من نفوذ، زعمت أنه حق خوله الله إياها، وإلى نبد ما تدعو إليه وتحاول فرضه من مفاهيم ملوثة بالخرافات والأساطير، والنقته أهداف الكنيسة مع حكام أوروبا في الوقوف ضد المد الإسلامي، سواء أكان هذا المد في صورته فتح جديد، أو صورته نشر الفكر الإسلامي واللغة العربية، واتفق الجميع على القيام بعمل مشترك يحول دون بلوغ ذلك المد غايته في القضاء على السلطتين، الدينيه والزمنيه في أوروبا، وكانت الكنيسة تجمع بينهما بوجه عام.

لقد أخذت الكنيسة عن طريق رجالها في تحذير الجماهير من الهجرة إلى بلاد المسلمين، ودراسه العلوم الإسلاميه، لأن في ذلك خطراً على عقيدتهم النصرانيه، ولكن الكنيسه، على ما بذلت من جهد، لم تتجح في وقف تيار الرحله للاعتراف من مناهل الثقافه الإسلاميه، وبدا لها أن الأمر يقتضي عملاً منظماً يحقق ما تصبو إليه في منع الهجرة إلى العالم الإسلامي، وتشويه صورته الإسلام والمسلمين لدى الأوربيين، وتمثل هذا العمل في امرين:

الأول: قامت الكنيسه بإيفاد عدد من القساوسه الذين أعدوا إعداداً خاصاً إلى بعض العواصم الإسلاميه في الأندلس والمغرب العربي لدراسه العربيه وعلومها، رائدهم في هذا تتبع العورات، وتلمس الشبهات، ليقوموا بعد عودتهم إلى بلادهم بتأليف الكتب وإلقاء المحاضرات المشحونه باختلاق المثالب، وإثارة الحفاظ ضد المسلمين.

الثاني: انشاء بعض المدارس العربيه في روما وغيرها، لإعداد أجيال من المتخصصين في العلوم الإسلاميه على نحو يؤهلهم لنشر كل مايسيء إلى الإسلام والمؤمنين به، حتى يفتت حماس الرغبه في الرحله إليهم، وتلقي العلم عنهم.

وكان أولئك القساوسه الذين أوفدوا إلى ديار الإسلام، طلباً للمعرفه المغرضه، وهؤلاء الذين تعلموا في المدارس العربيه الأوربيه، وعلى وفق التخطيط الكنسي الذي كان يتغيا مقاومه العقيدته الإسلاميه، كان كل هؤلاء هم الطلائع الأولى للاستشراق، وكانت آراؤهم في الإسلام ونبيه ومعجزته، والمسلمين وحضارتهم، هي بدايات الفكر الاستشراقي، وهذه البدايات ما كان لها أن تعرف الموضوعيه، أو الأمانه العلميه، لأنها خضعت لتوجيه أراد منها ان تكون حرباً فكريه تحقق ما عجزت كل ما سبقها من محاولات عن تحقيقه.

إن آراء الجيل الأول من المستشراقين اتسمت بالجهل المتعمد بالإسلام، والخلط الغريب بينه وبين غيره من الأديان، والرغبه العارمه في مقاومه ما يمكن أن يكون لهذا الدين من تأثير، فمحمد، فيما كتبه هؤلاء، ساحر هدم الكنيسه في إفريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعه، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسيه، والمسلمون يعبدون ثلاثين إلهاً، والقرآن يمزج على غير نظام بين تعاليم العهدين القديم والجديد، او بين التوراه والإنجيل... إلخ.. تلك الأفكار الحاقده الفاسده، المستمده من الأوهام، وآراء العوام، والكتاب المقدس، ولا علاقته لها بمصدر علمي أو موضوعيه وأمانه.

فالفكر الاستشراقي إذن نشأ في رعايه الكنيسه، وخضع فيما صدر عنه لتوجيهاتها، ومن ثم لم يكن عملاً علمياً على نحو من الأنحاء، وإنما كان لوناً من ألوان المقاومه للمد الإسلامي.

### الفكر الاستشراقي بعد الحروب الصليبيه

لقد كانت الكنيسه في اوربا – كما ذكرنا – من وراء كل المواقف المضاده للإسلام، منذ دخل هذا الدين تلك القاره، فقد بذلت كل ما استطاعت من جهد في سبيل الحيلوله بين الأوربيين والوقوف على تعاليم الإسلام وآدابه، ولكنها على ما بذلت لم تحقق ما سعت إليه، وظل الأوربيون يقبلون على تعلم العربيه، والهجرة إلى مواطن الثقافه الإسلاميه، وظل الفكر الإسلامي له تأثيره في عقول الأوربيين ومشاعرهم، فهم ما زالوا يدرسونه، ويترجمون آثاره، بل تضاعف نشاطهم في هذا..

ولما بدا للكنيسه أن ما قامت به لم يكفل لها بلوغ الغايه في مقاومه المد الإسلامي فكرياً وحضارياً، اتجهت نحو إثارة العامه ضد المسلمين، وشد أزرها في هذا بعض النبلاء والحكام الطامعين في كنوز الشرق وخبراته، وأتاح

التمزق الذي شهده العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري، وظهور بعض الدول المستقلة عن الخلافة في بغداد، لكنيسة فرصه تحويل تلك الإثارة إلى حملات مسلحة تعبر البحر المتوسط لمهاجمة المسلمين في الشرق تحت ستار حمايه الصليب، وانقاذ القبر المقدس من أيدي البرابره المتوحشين، أي المسلمين، كما كانت تعبر عنهم الكنيسه. وتعددت الحملات التي عرفت باسم الحملات الصليبيه، لأن الصليبان وزعت على الحاضرين في مجمع كلرمونت سنه: 1095 م، حيث ألقى البابا أوربان الثاني موعظته التي حث فيها العالم المسيحي على الحرب، لتخليص القبر المقدس من المسلمين، ووعدهم بأن تكون رحلتهم إلى الشرق غفراناً كاملاً لذنوبهم، كما وعدهم بهدنه عامه تحمي بيوتهم في أثناء غيبتهم. وكانت هذه الموعظه الشراره التي أشعلت نار الحملات الصليبيه التي استطاعت أن تحتل منطقته الشام، وتدخل القدس، وترتكب من الجرائم البشعه ما لا يصدق عقل، إذ قتل نحو سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى، ما بين رجل وأمره وطفل، حتى خاضت الخيول في دماء الشهداء. ومكث الصليبيون في أرض الإسلام نحو مئتي عام، وتمكن صلاح الدين بعد أن وحد بين البلاد العربيه من أن يهزم هؤلاء البغاه في موقعه حطين سنه 583 هـ، وكانت هذه الهزيمة بدايه نهايتهم وطردهم من ديار الإسلام. وعلى الرغم من أن الصليبيين عرفوا المسلمين عن كثب، ونقلوا كثيراً من مؤلفاتهم العلميه، وانتقوا بها في بلادهم، على الرغم من كل هذا لم تتغير صورته الإسلام والمسلمين لدى أوربا، وظلت مشاعر التعصب متأججه في نفوس أهلها، وزادت الهزيمة في حطين من مواقف العداء، وأيقن الأوروبيون أن الإسلام هو مصدر الخطر على مطامعهم في الشرق، ومع هذا تعد نهايه الحملات الصليبيه بدايه مرحله جديده للفكر الاستشراقي امتدت إلى نحو منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وقد تميزت هذه المرحله بما يلي:

اولاً: أدرك الغرب من خلال حروبه الصليبيه أن الشرق يتفوق عليه فكراً وحضارياً واقتصادياً، وأنه يجب على الغربيين أن يسيروا في نفس الطريق الذي سارت فيه شعوب الشرق، لكي ينهضوا ويتقدموا.

ثانياً: تضاعف الاهتمام باللغه العربيه، وإنشاء الكراسي العلميه الخاصه بها، كما تضاعف الاهتمام بإنشاء المدارس والمعاهد والجامعات لدراسه الحضاره الإسلاميه، وكانت المؤلفات العربيه في مجال العلوم الهندسيه والفلكيه والطبيه والفلسفيه تدرس في هذه الجامعات التي أنشئت تقليداً مطلقاً للجامعات الإسلاميه في الأندلس وصقلية، وظلت تلك المؤلفات ماده البحث والدراسه الجامعيه لنحو ستة قرون<sup>6</sup>.

ثالثاً: قويت حركه نقل التراث العربي إلى أوربا، ونسابق أهلها في الحصول على اكبر قدر منه، واشترك في هذا الحكام والمستشرقون وبعض الرحاله والمغامرين الذين كانوا يلجأون إلى السرقة والخداع والتضليل.

وما كان كل هؤلاء فيما يسعون إليه ينتقون من هذا التراث، وإنما كانوا يجمعون منه ما تصل إليه أيديهم، ثم يقومون بتصنيفه بعد نقله إلى بلادهم. ولعل تفرق أجزاء الكتاب الواحد في أكثر من مكتبه في العالم، أو فقد بعض هذه الأجزاء يرجع إلى ذلك.

لقد ذكر «فيليب دي طرازي / ت: 1956 م» في الجزء الثاني من موسوعته «خزائن الكتب العربيه في الخافقين .. أن في بعض مكتبات لبنان مخطوطه من كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان، على هامشها حاشيه بقلم قنصل فرنسا في بيروت في منتصف القرن السابع عشر، خلاصتها أنه في سنه 1671 م أرسل عالي الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى بلدان الإسلام لشراء المخطوطات، وزود مبعوثيه بأوامر شريفه إلى جميع القناصل الفرنسيه ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمه هذه الغايه.

وقام المستشرق الإنجليزي إدوارد يوكوك (ت: 1691 م) الذي عاش خمس سنوات في مدينه حلب السوريه مبشراً، برحله إلى الأستانه: 1637، وجمع مجموعه نفسه من المخطوطات العربيه، وهي التي تكون الآن قسماً من أئمن المخطوطات في المكتبه البودليه في اكسفورد<sup>7</sup>.

كذلك قام المستشرق الهولندي يعقوب جولوبوس (ت: 1667 م) برحلتين إلى المغرب الأقصى وسوريه اشترى فيهما كثيراً من المخطوطات العربيه، ونقلها إلى مدينه ليدن، ونشر بعضها بين سنوات: 1623-1656.

لقد نقل الأوروبيون آلاف المخطوطات من العالم الإسلامي، وسلخوا في سبيل ذلك طرقاً متباينة، منها السرقة، والتودد إلى بعض القائمين على المكتبات بالهدايا، والتظاهر باعتناق الإسلام، وإبداء الرغبة في الاطلاع على ما خطته أقدام العلماء المسلمين.

وكانوا بعد نقل تلك المخطوطات إلى أوروبا يصنفونها ويفهرسونها، وقد ساعد الاستشراق في هذا بعض علماء الشرق الذي استقدموا لهذه المهمة، كما قاموا بترجمة الكثير مما نقلوه، وخاصة ما يتصل منه بالعلوم الرياضيه والطبيه إلى اللاتينية، ثم إلى اللغات الأوربيه، وطبع بعضه بالعربيه بعد اختراع الطباعة.

والذي لا مرأ فيه أن التراث الإسلامي الذي نقل إلى أوروبا قد أسهم بدور فعال في انبثاق عصر النهضة، وأخراج أوروبا من ظلمات العصور الوسطى، ولكن الأوربيين كانوا يتجاهلون فضل المسلمين عليهم، وكانوا، في مؤلفاتهم التي أخذت عن الكتب العربيه، أو ما ترجم منها، يزعمون أنهم لم يعتمدوا على مصادر عربيه<sup>8</sup>، وكشفت الدراسات العلميه المعاصره عن انتحال الأوربيين لمؤلفات وآراء مفكري الإسلام في تلك المرحله من مراحل الاستشراق، فقد اثبتت مثلاً أن هارفي (ت: 1657 م) الذي ادعى أنه أول من اكتشف الدوره الدمويه، قد ترجم ترجمه حرفيه من اللاتينيه التي نقل إليها ما قاله ابن النفيس (ت: 687هـ=1288 م) في هذا الموضوع، فهذا العالم المسلم الذي سبق هارفي بنحو أربعه قرون هو أول من اكتشف هذه الدوره في تاريخ الطب، وليس ذلك الدعي الذي انتحل ما ليس له.

رابعاً: وإذا كانت الكنيسه في المرحله الأولى للاستشراق قد جندت بعض الرهبان لدراسه الإسلام، بقصد تفجير الأوربيين منه، وإذا كانت أيضاً قد أنشأت بعض المدارس لتخريج من يتصدى لتأثير الإسلام النفسي على الأوربيين، فإنها في المرحله الثانيه قررت مواجهه هذا الدين على نطاق واسع، ولا سيما بعد أن فتح الأتراك مناطق البلقان، وحاصروا فينا وإنها بعد أن نجحت في العمل على انحسار المد الإسلامي في شبه جزيره أسبانيا لم تنسَ هزيمتها المنكره في حطين، وأزعجها المد الجديد للإسلام في شرق أوروبا، وأخذت تخطط لمقاومه الإسلام لا بين الأوربيين فحسب، وإنما بين المسلمين أنفسهم. فأكثرت من إنشاء المدارس والمعاهد التي تدرس العربيه والعقيده الإسلاميه، لإعداد مبشرين يعلمون على تنصير المسلمين، أو تشكيكهم فيما هم به يؤمنون، ومن ثمَّ عرفت هذه المرحله الاستشراقية التبشير بالمسيحيه بين المسلمين، وكان يرسل من أجل ذلك إلى البلاد الإسلاميه بعض المستشرقين لجمع المخطوطات من جهه، وللتبشير من جهه أخرى، وأصبحت شخصيه المستشرق تجمع بين الباحث والمبشر، ومن هؤلاء من أقام في بلادنا عدده أعوام لتلك المهمه.

ويعد بطرس الكلوني (ت: 1156 م) أول راهب متحمس لحرب المسلمين عن طريق السلاح والفكر، وكان في رسائله للملوك الصليبيين يدعو إلى تنصير المسلمين، فذلك أنفع للمسيحيه من قتلهم، ولهذا كان يعتقد أن المهمه الأولى للحروب الصليبيه هي تنصير المسلمين، ولكنها تحولت إلى عمل سياسي وعسكري، ففقدت بذلك القيام برسالتها، وأرجع بطرس فشل هذه الحروب في القيام بما كان يجب عليها أن تقوم به إلى جهل المسيحيين بحقيقه الدين الإسلامي، ولذا أوجب على نفسه، وحض سواه، على دراسه الإسلام ومواجهه المسلمين، واقناعهم بالتخلي عن الإسلام واعتناق المسيحيه. وكان مما قام به بطرس للتبشير بالمسيحيه بين المسلمين تكليف مجموعه من المترجمين لترجمه بعض الكتب، للتعرف على الإسلام ودراسه تعاليمه، ولكن هذه الكتب التي ترجمت ألفها يهود متتصرون، أو نصارى مستعربون، ومن ثمَّ كانت أبعد ما تكون عن الإسلام الحقيقي، بل هي إلى الأساطير أقرب منها إلى دراسه العلميه.

ومن هذه الكتب ونحوها اطلع الغرب على الإسلام، وترسب في وجدان الأوربيين أن هذا الدين محض افتراء، وأن الذين يؤمنون به ويجاهدون في سبيله قوم مضللون، وأن على الكنيسه أن تتصدى لهذا الدين لا بسيف الحرب، وإنما بسيف التبشير بالإنجيل والتنصير، ومع ما بذله أمثال بطرس الكلوني وغيره من الحانقين والحاقدين من جهد في سبيل التبشير بالمسيحيه لم يحقق التبشير مهمته، ولم ينجح في أن يدخل في المسيحيه مسلماً واحداً، بيد أن هذا النشاط التبشيري – وإن أخفق في مهمته – لكن ترتب عليه التوسع في دراسه الدين الإسلامي، ولغه القرآن، وترجمه الكثير من المؤلفات الإسلاميه إلى اللاتينيه، ثم إلى بعض اللغات الأوربيه، وترجمه الكتاب المقدس إلى اللغه العربيه.

خامساً: ترجم القرآن الكريم في هذه المرحله إلى أكثر من لغة أوربيه، وكانت أول ترجمه له قد أنجزت في دير كلوني تحت إشراف بطرس، الذي سبقت الإشارة إليه، فقد جند هذا الراهب المتعصب بعض من يجيدون اللغه العربيه

من القساوسة وغيرهم لترجمه القرآن، وبعض الكتب التي ذكرتها آنفاً، ليتخذ من ذلك سلاحاً للهجوم على الإسلام، والاستهانة به، حتى يستطيع أن يبشر بالمسيحية بين المسلمين.

وكانت هذه الترجمة هي الأولى للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، ولم تكن ترجمه بالمعنى العلمي، فقد سيطرت على من قام بها روح العداة والسخرية والحقده والكراهية، ومن ثم جاءت مجافيه لمقصود القرآن الكريم، ومشحونه بالأباطيل والأكاذيب، ويكفي داله على هذا أن من قام بها وصف عمله بأنه تعريه لمبادئ الإسلام للضوء، بعد ما سمح الدارسون في الكنيسة لهذا الكفر أن يتسع ويتضخم، وينتشر لمدته تجاوزت خمسة قرون، وأنه بذلك قشع الدخان الذي أطلقه محمد (ص). ثم يخاطب قارئه قائلاً: لعلك تطفئه بنفخاتك<sup>9</sup>.

ما الذي يتوقع من مترجم لكتاب ينظر إليه هذه النظرة السوداء؟ لا مرأى في أنه سيتعامل معه من منطلق التصرف في أصله، والتحريف في مضمونه والتشويه لحقائقه، والإضافه الفاسده إليه [يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون]<sup>10</sup>.

وظلت هذه الترجمة مخطوطه نحو أربعة قرون، ثم طبعت في مدينه بازل، وظهرت في يناير – كانون الثاني، سنه 1543 م، وكانت هذه الطبعه هي البدايه لسيل من الترجمات باللغات الأوربيه أخذت في الظهور منذ ذلك التاريخ حتى بلغت اللغات التي ترجم إليها القرآن الكريم ترجمه كامله إحدى وعشرين لغة أوربيه، ولكن كل هذه الترجمات كانت محرفه مشوهه لاتعرف الأمانه العلميه، فقد كان كل من يترجم الكتاب العزيز من الأوربيين يشفع ترجمته بمقدمات وتذييلات وبعض الحواشي في دحض هذا الكتاب، وذلك من قبيل الإعلان عن حسن إيمانه وصحة عقيدته، حتى يمكن أن تنشر ترجمته وترضى الكنيسة عنه.

وفي القرن السادس عشر تجرأ بعض الأوربيين فنشر طبعه القرآن الكريم في نصها العربي، وقد انزعج البابا في روما كل الانزعاج من هذا، وأمر بجمع النسخ المطبوعه كلها وحرقتها، وأقام لذلك احتفالاً دينياً شهده شخصياً، ليظهر للعالم المسيحي استنكاره البابوي.

ولم يكن انزعاج البابا من طبع القرآن الكريم بنصه العربي المنزل إلا خوفاً من اطلاع المسيحيين على ما جاء به هذا الكتاب العزيز من تعاليم وأداب تقضح المواقف الحاقده، والأباطيل التي كان يرددها المستشرقون – تحت رعايه الكنيسة – عن الإسلام ونبيه.

سابقاً: اتسعت دائره الاستشراق، وأقبلت كل دول أوربا على الدراسات الشرقيه، وأنشئت في بعض الجامعات كراس للتخصص في هذه الدراسات، وكان هذا التسابق في دراسته الشرق، وتراثه الإسلامي بوجه خاص، يسعى نحو غايه واحده، وهي التمهيد للانقضاض على الشرق مره أخرى، وقد بدأت بريطانيا في تحقيق هذه الغايه بإنشاء بعض الشركات التي كانت نواه الاحتلال الانجليزي للهند.

سابقاً: ومع كثره نقل التراث الإسلامي المخطوط الى أوربا ودراسته وترجمه بعضه، وطبع قدر منه بالعربيه، ومع احتكاك العالم الأوربي بالمسلمين في الأندلس وجزر البحر المتوسط، وفي فتره الاستيطان الصليبي بالشام – مع هذا كله لم تتغير صورته الإسلام والمسلمين في أذهان الأوربيين، وذلك لأن تعامل هؤلاء مع التراث الإسلامي والمسلمين بوجه عام لم يتجه نحو البحث عن صورته الصحيحه للإسلام، وإنما اتجه نحو الانتفاع بما حققه المسلمون في مجال العلوم الطبيعيه وما إليها من ابتكارات، إنهم لم يهتموا بالوقوف على مفاهيم الإسلام الصحيحه، بل إنهم كانوا يقفون من هذه المفاهيم موقف المتعصب لما يؤمن به والذي يرى في عقائد الآخرين – دون فهمها أو دراستها – ضلالاً مبيناً، لأن جهد الكنيسة في تشويه الإسلام، بالإضافة إلى الأساطير الشعبيه التي نسجت خيوطها الأوهام والأحقاد حالت دون النظر إلى الإسلام والمسلمين بمنهج علمي موضوعي، وجعلت الأوربيين لا يرون في الإسلام إلا ديناً فاسداً، وفي المسلمين إلا أمه همجيه كافره لاتحسن غير التدمير والتخريب. ولذلك كان كل ما كتب عن الإسلام والمسلمين يمثل السطحيه والكراهيه لهذا الدين، والخوف من قوته وسطوته، ومن هنا امتلأت كل المؤلفات الأوربيه في المراحل الثانيه من مراحل الاستشراق بالسخافات والجهالات والضلالات<sup>11</sup>. والتقت كلها على أن نقطه البدايه في حرب الإسلام، وتفسير المسيحيين والمسلمين منه على السواء، هي القرآن الكريم، وكان هذا مرد الإقبال على ترجمته ترجمه محرفه مشوهه ينكرها الأصل العربي كل الإنكار، لتكون ذريعه لاصدار الآراء المضلله عنه.

ثامناً: وإذا كان ذلك السلوك المعادي للإسلام موجهاً للأوروبيين والمسلمين، وخاصة الذين كانوا في بعض بلدان أوروبا، كاهل الأندلس وصقلية، فإن الحقيقة التاريخية هي أن الحرب الفكرية ضد الإسلام بدأت أولاً في الشرق، فقد أخذ المسيحيون في البلاد التي فتحها المسلمون، كسوريا والعراق، يثيرون قضايا جدليه ونقديه يريدون من ورائها الطعن في تعاليم الإسلام، وأنها ليست جديره بالاتباع، وقد ساعدهم على نشر ما يريدون أمران:

الأول: تظاهر بعضهم بالإسلام.

الثاني: ما تمتعوا به في الحكم الإسلامي من الحرية العلمية.

ويرجع كل ما عرفته حلقات الدرس، ومجالس العلم في الحواضر الإسلامية من مجادلات عقيمة حول كثير من القضايا الكلامية وغيرها إلى ما قام به هؤلاء من إثارة الشبهات حول العقيدة الإسلامية، والآيات المتشابهات، ومنزله السنه من القرآن ... إلخ.

وكان يوحنا الدمشقي، الذي عاش في كنف البلاط الأموي متمتعاً بالأمن والحرية، أول من بدأ تلك الحرب الفكرية ضد الإسلام، وكان أول من أثار قضايا تبناها الفكر الاستشراقي بعد ذلك، فهو الذي ابتدع أن الرسول (ص) كان يستعين براهب مسيحي أبى في نقل ديانته عن العهدين القديم والجديد، وأن الوحي القرآني كان يصاغ على وفق رغبات الرسول الجنسية، ويشير بهذا إلى زواج الرسول بزينا بنت جحش.

وقد تلقف مثل هذه الآراء الباطلة، المسيحيون من أهل الأندلس وأضافوا إليها ما نشرته الكنيسة من افتراءات وخزعبلات، ثم ترجموها إلى اللاتينية وكانت منطلق الهجوم الأثم ضد الإسلام.

ولم يقف علماء المسلمين أمام ما يذيعه هؤلاء الأفاكون من أباطيل موقفاً سلبياً، وإنما جادلوهم مجادله علمية، وبينوا لهم زيف ما يقولون ويعتقدون، وكشفوا لهم عن الحقائق الناصعة التي لا يسع العاقل إلا التصديق بها والدفاع عنها، ومن هذا ما كتبه أبو الوليد الباجي (ت: 474هـ) في الرد على أكاذيب أحد الرهبان الفرنسيين، ومن قبل الباجي كتب الإمام ابن حزم (ت: 456هـ) كتابه «الفصل في الملل والنحل» تناول فيه الأناجيل والعقائد المسيحية بمنهج عقلي منطقي لامجال فيه للتجني أو الانفعال العاطفي، ولذلك حرمت الكنيسة التراث العلمي لهذا الإمام، لكي تظل الخرافات والمتناقضات حول المسيح (ع) راسخة في أذهان ومشاعر المسيحيين، فلاتزعزعها أمثال هذه الدراسات العلمية والموضوعية<sup>12</sup>.

وفي نحو منتصف القرن السادس الهجري نشر راهب اسباني رساله حمل فيها على الدين الإسلامي، ودعا المسلمين إلى الإيمان بالمسيح، وأفاض هذا الراهب في تمجيد عيسى (ع)، وبيان منزلته، وقد تصدى للرد على تلك الرساله التبشيرية أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (ت: 582هـ) في كتابه «مقامع الصلبان» وفند المزاعم التي تضمنتها هذه الرساله، واعتمد في ذلك على الأناجيل، ولكنه في بعض الأحيان كان يستعمل ألفاظاً قاسية، ويبدو أن روح التعصب التي كتبت بها ذلك الراهب رسالته، هي التي سوّغت للخزرجي أن يرد أحياناً بأسلوب عنيف<sup>13</sup>.

وظهرت بعد الخزرجي مؤلفات لابن سبعين (ت: 669هـ) والقرطبي (ت: 671هـ) في الموضوع نفسه، وكتب فيه الإمام ابن تيمية (ت: 728هـ) موسوعته: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

ويعد كتاب «إظهار الحق» للعلامة الشيخ رحمه الله بن خليل الرحمن العثماني (ت: 1308هـ) وهو هندي الأصل، وقد هاجر إلى مكة بعد أن قرر الانجليز إعدامه لشجاعته في الحق، وقوه عاضته في الدفاع عن الإسلام، والهجوم على الملل الباطلة – يعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي ظهرت في العصر الحديث حول الصراع الفكري بين الإسلام والقوى المضادة، ويكفي دلاله على أهميته وقيمه ما كتبت صحيفه بريطانيه عنه: «لو دام الناس يقرأون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم».

وما زال هذا الصراع قائماً، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تاسعاً: وعرفت المرحلة الثانيه للاستشراق بدايه التحالف الظالم بين اليهود والنصارى للقضاء على الإسلام والمسلمين، ففي عام: 1505 م كتب أحد اليهود مشروعاً لذلك التحالف وقدمه إلى البابا؟ وضمنه النقاط التاليه:

1. احتلال العالم الإسلامي.

2. انتزاع الأرض المقدسه من المسلمين.

3. احتلال اليهود فلسطين<sup>14</sup>.

ولهذا دخل اليهود ميدان الاستشراق، وقدموا إلى الدول الأوربيهه المسيحيه كل ما عرفوه من المسلمين من المسلمين من مواطن الضعف والقوه، ومن ثم كانوا عوناً لهذه الدول على احتلال الشعوب الإسلاميه وتحقيق الحلم الصهيوني باغتصاب فلسطين، كما أنهم فاقوا المستشرقين المسيحيين في إذاعه الافتراءات حول الفكر الإسلامي.

عاشراً: وكان لكل ما أسلفته من خصائص هذه المرحلة في تاريخ الاستشراق أثر بالغ في تعميق الهوه بين الأوربيين والإسلام، لقد كانت مؤلفات المستشرقين وترجماتهم للقرآن الكريم، وما روجته الكنيسه من أساطير وأباطيل، المرآه التي تعكس صوره هذا الدين، وهي بلا جدال صورته منفرده مخيفه فهي لاتحكي غير الهرطقه<sup>15</sup> والوحشيه والسلب والنهب، ولذا اشتد الخوف من الإسلام والكراهيه له، وتواطأ الجميع على مناهضته، واغتصاب أرضه، وإذلال المؤمنين به، وتوارثوا هذا جيلاً بعد جيل حتى الآن.

### الهوامش

1. د. احمد سمايلوفتش، فلسفه الاستشراق، ص 39، ط دار المعارف القاهره.

2. د. محمد يوسف مرسى، التشريع الاسلامي وأثره في التشريع الغربي، ص 107، ط القاهره.

3. د. فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب، ص 32، ط الرياض.

4. ترجمه د. على خشيم، ود. صلاح الدين السوري، نظره الغرب إلى الاسلام في العصور الوسطى، ص 28، ط ليبيا.

5. المصدر نفسه، ص 5.

6. د. فؤاد سزكين، المرجع السابق، ص 77.

7. د. ميشال جها، الدراسات العربيه الاسلاميه في اوربا، ص 32.

8. د. فؤاد سزكين، المرجع السابق، ص 81 و 84.

9. مجله (المسلم المعاصر)، العدد 48، ص 62.

10. سوره الصف، الآيه 8.

11. د. عبد الجليل شلبي، صور استشراقيه، ص 26.

12. مجله (الوعي الاسلامي)، العدد 208، ص 64.

13. مجله (البحث العلمي) المغربيه، السنه الخامسه، العدد 13، ص 23.

14. المستشار محمد عزت الطهطاوي، التبشير والاستشراق، ص 107.

15. اي (الكفر والالحاد).